

التحرر من قيود المكان نحو فضاءات للتعايش بين المسلمين واليهود زمن الأوبئة والمجاعات بالمغرب (1856-1956)

محمد الصديق احموشي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس

مقدمة

عاش اليهود في جلّ المدن المغربية داخل أحياء خاصة بهم، مسورة من جميع الجهات، تسمى بـ "الملاحات". بينما كان المسلم يعيش داخل ما يسمى بـ "المدينة" محاطة هي الأخرى بأسوار عالية وأبواب موصدة. وعلى الرغم من تعدد التبريرات بخصوص بناء هذه الملاحات إلا أنها تركز على معطى واحد، ألا وهو توفير الحماية والأمن لليهود. ذلك أن أغلب كتابات الرحالة الأوربيين الذين وفدوا إلى المغرب خلال القرن التاسع عشر أو بداية القرن العشرين، مستجيبين لإملاءات ضغط قوية، حاولت رسم صورة قاتمة عن واقع احتجاز اليهود داخل ملاحاتهم، وركزوا على معطى رئيس وهو عزل اليهود عن المسلمين درءا لكل اضطهاد أو تعسف عنصري قد يطالهم. وحتى إذا ما سلّمنا فرضا بصحة هذا المعطى التبريري، فكيف يمكن تفسير خروج اليهود من ملاحاتهم "الأمنة"، و"القفر على أسوارها"، في أزمنة موسومة بالمجاعات والأوبئة، بغية الوصول إلى أمكنة أكثر أمنا بجوار المسلمين؟

ساهمت الأزمات التي عرفها المغرب، منذ المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى غاية المنتصف الأول من القرن العشرين، وأخص بالذكر هنا أوبئة الكوليرا، التيفويد، الجدري، فضلا عن المجاعات التي أودت بحياة الكثير من المغاربة يهودا ومسلمين، في حدوث هجرات من مكان إلى مكان آخر دونما الحاجة إلى استحضر خصوصية هذا المكان أو هويته. وفي هذه الأماكن تنهار الحدود الدينية، ويظل اليهودي المغربي بصفته جزءا لا يتجزأ من محيطه الاجتماعي والثقافي. فالمكان الذي كان مرفوضا بالأمس إذ يغدو ملاذا وملجأ اليوم، وما هذا الجمع بين طرفي نقيض إلا لإيماننا بوجود نوع من التلازم بين الشيء وضده؛ فاليهودي ربما يتوجس من اقتحام الفضاء الخاص بالمسلم والعكس صحيح، لكن في أوقات الأزمة يصير النفور من ذلك المكان ما يبرر الحاجة للنزول فيه. وسنورد نماذج تخص أماكن الدعارة، والأضرحة والزوايا، وبعض الفضاءات الأخرى التي شكلت مجالا للتضامن والتعايش بين المسلمين واليهود على مختلف فئاتهم الاجتماعية حيث تحرر هؤلاء من قيود المكان رافضين كل مظاهر الانغلاق والتسوير تواقين إلى فضاءات أرحب خارج فضائهم المعتاد.

1- تلاشي القيود الدينية أمام جاذبية المكان

في أكتوبر 1865، وجه الوزير الطيّب بن اليميني¹ رسالة إلى التاجرين اليهوديين الأخوين أبرهام ويعقوب قرقوز² لاستضافة ابنه العائدين من الحج بمنزلهما بالصويرة.

¹ كان يشغل وظيفة الصدر الأعظم على عهد سيدي محمد بن عبد الرحمان 1859-1873م.

وكانت السفينة التي تقلّ الحجاج المغاربة، لاعتبارات وقائية مرتبطة بتفشي وباء الكوليرا، اضطرت إلى تغيير مكان رسوّها بطنجة نحو ميناء الصويرة، حيث سيخضع هناك الحجاج لحجر صحي.³ ويبدو منذ الوهلة الأولى أن نزول حاجّين مغربيين من كبار الأعيان المسلمين، عائدتين لتوّهما من الديار المقدسة، بمنزل يهودي يصعب تقبله في البداية، إذ من المفروض أن يحلّ وسط أهلها أو على الأقل في بيت أحد المسلمين بالصويرة.⁴ وهي واقعة استوقفت المؤرخ اليهودي ميشيل أبيتبول (Abitbol Michel) معتبرا أن الجانب الديني لم يشكل قطّ عاملا للتباعد بين المسلمين واليهود،⁵ كما أكدت لنا بشكل واضح أن "التضامن بين كبراء المسلمين وكبراء اليهود أقوى من التعاطف الديني بين الكبراء والعامة في كل ملّة من الملّتين".⁶

لكننا إذا ما استحضرنّا ظروف الوباء والحالة النفسية للأب، الذي سيكون مطمئنا أكثر على ولديه في منزل صديقه اليهودي، أمكن لنا القول بأن جاذبية المكان ألغت كل القيود. وهو اختيار له أيضا ما يبرره بحكم علاقات التآزر والتضامن المتميزة بين الجماعتين، والتي كانت سائدة بقوة في المجتمع المغربي خلال تلك الفترة، جعلت من المسمّيات التي

² رسالة من الطيب بن اليميني إلى النميمين الأخوين أبراهام ويعقوب قرقوز في 20 جمادى الأولى 1282/11 أكتوبر 1865، رصيد كوركوس، أرشيف المغرب، الرباط.

³ تعود ملايسات هذه المراسلة إلى سنة 1865م، حيث هلك أكثر من 30000 حاج بمكة بسبب وباء الكوليرا. وكان المجلس الصحي الدولي بالمغرب، المتكون من رؤساء البعثات الأجنبية بالمغرب، قد قرر إخضاع جميع السفن التي تقلّ الحجاج المغاربة من الإسكندرية بمصر والتي كان الوباء قد تسرب إليها في 2 يونيو 1865م، إلى حجر صحي طارئ بمدينة الصويرة. وصلت السفينة "بابور باشا" التي كانت تقلّ أبناء الوزير الطيب بن اليميني إلى الصويرة في 2 أكتوبر 1865م، حسب ما هو مبين في الرسالة، وقد استضافتهما عائلة قرقوز إلى غاية 27 أكتوبر، حيث وجه سي الطيب رسالة إلى أبراهام "يشكره عما قام به من اعتناء بأولاده عند حلولهم بمدينة الصويرة". وكانت سفينتان قد سبقتا السفينة المصرية إلى ميناء الصويرة، بعدما اضطرتا إلى مغادرة ميناء طنجة بناء على أوامر المجلس الصحي، الأولى وهي السفينة التجارية "كرستيانا" وكانت تقلّ 412 حاجا مغربيا. أما السفينة الثانية فهي "سمنوث" التركية التي وصلت إلى طنجة في فاتح شتنبر 1865م. وتجدر الإشارة إلى أن السفينة المصرية "بابور باشا" التي كانت تقلّ ابني الوزير الطيب بن اليميني كانت تقلّ 1800 حاجا هلك منهم 1000 بسبب الكوليرا؛ انظر : رسالتي الطيب بن اليميني، في 6 جمادى الثانية 1282هـ/ 27 أكتوبر 1865م، وفي 11 جمادى الأولى 1282/2 أكتوبر 1865م، رصيد كوركوس، أرشيف المغرب، الرباط؛ انظر أيضا: رسالة العياشي بن محمد بنيس إلى الأمين الحاج محمد بن المدني بنيس في 11 ربيع الثاني 1282هـ بخصوص تحويل مسار السفينة من طنجة بقرار من المجلس الصحي. هذا الأخير منع استقبال مؤنّتين، الأولى لفائدة أبناء الوزير والثانية لفائدة الحجاج؛ البزاز، محمد الأمين، "الحج المغربي إلى الديار المقدسة في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين"، مجلة دار النياية، العددان 16/15، السنة 4، صيف/ خريف 1987، ص 66؛ انظر أيضا: مجلة الوثائق، عدد 4، الوثيقتين 556 و 557، الرباط، المطبعة الملكية، 1977، ص 330-331؛ انظر أيضا: Beaumier, Auguste, « Le choléra au Maroc, sa marche du Sahara jusqu'au Sénégal en 1868 », dans *Bulletin de société de* 1872, Série 6, t 3, Paris, p. 289. *Géographie*, Janvier,

⁴ كانت عودة الحجاج مناسبة لأفراح كبيرة: كان الناس ينتظرونهم بأبواب المدينة، ثم يصحبونهم إلى ضريح المولى ادريس، حيث كانوا يصلوا حتى قبل اجتياز عتبة منزلهم. وبعد ذلك كانوا يقيمون في دورهم حفلات كبرى يستدعون إليها العديد من الناس؛ لوطورنو، روجي، فاس قبل الحماية، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ج 1، 1995، ص 847.

⁵ Abitbol, Michel, « Un aspect des relations judéo-musulmanes au Maghreb à la fin du XIXème siècle : Les négociants du roi et la bourgeoisie marocaine à la veille du Protectorat », dans *Les relations entre juifs et musulmans en Afrique du nord XIXe- XXe siècles*, actes du colloque international de l'institut d'histoire des pays d'outre-mer, octobre 1978, Paris, Edition du centre national de la recherche scientifique, 1980, p. 113.

⁶ التوفيق، أحمد، *المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إينولتان 1850-1912)*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ج 1، ط 3، 2011، ص 367.

اتخذتها بعض الأمكنة غير ذات أهمية كـ"الملاح" أو "المدينة". ولعل إيواء الأسر اليهودية، داخل ملاحهم، للمسلمين الذين أصبحوا بدون مأوى، بعد أن هُدم 1200 إلى 1500 منزلا وعُرضت 1500 إلى 2000 أسرة مسلمة للتشرد والفقر غداة الهجوم الإسباني على مدينة تطوان سنة 1860،⁷ دليل آخر على هذا التلاحم بين العائلات اليهودية والمسلمة ومعطى كافى لاستضافة عائلة قرقوز لأبناء الوزير المسلم خمس سنوات مرت على هزيمة تطوان.

2- فضاءات الممارسة الطقوسية: الأضرحة المشتركة بين اليهود والمسلمين

تعتبر زيارة اليهود لأضرحة أولياء مسلمين والعكس صحيح، مجالا آخر يلتقي فيه المسلمون واليهود دون أي اعتبار للحدود الوهمية، ذات البعد الديني، التي باتت تفصل بين الفضاءات والأمكنة. فكل الوقائع التي تتحدث عنها الوثائق تكشف عن زيف كل المقتضيات المتصلة بفصل "الملاح" عن "المدينة"، أو وجود قطيعة بين الفضاءين الإسلامي واليهودي. لقد شكّل الاعتقاد بمنافع أضرحة وقبور الأولياء دافعا آخر لارتياح هذه الفضاءات، وهو ما يفسر الزيارات المنتظمة التي عرفتها قبور الأولياء وأضرحة القديسين من طرف العنصرين اليهودي والإسلامي خلال الأزمات والأمراض. فالمسلمون لم يجدوا أي حرج في التردد على أكثر الأماكن قداسة عند اليهود، من أجل التمسح على قبر أحد الأولياء، إيماناً منهم أنه بمقدوره شفاءهم من مرض عضال، أو أملا في سنة مطيرة تنهي أزماتهم،⁸ "بل كان بعض المسلمين يقدمون التبرعات للصناديق الخيرية التي كانت بجانب هذه القبور أو بجانب المعابد،⁹ كما هو الشأن بالنسبة لضريح "شلومو بلحنش"،¹⁰ أو قبر "حنانيا الكوهن" القابع وسط ملاح مراكش نظرا لمكانتهما الدينية عند الطائفتين معا.¹¹ ولا يجد "إسخار بن عمي" أي غرابة في أن يؤدي مُسلمان، متخاصمان في دعوى، القسم عند ضريح ولي يهودي، أو

⁷ Hermann, Cohn, *Mœurs des Juifs et des Arabes de Tétuan*, Paris, Librairie Lipschutz, Edition 2, 1927, p. 6.

⁸⁸ جرت العادة خلال الجفاف، في مختلف البلاد الإسلامية التي تعرف تواجد أقليات يهودية بها، أن يقصد المسلمون الأولياء اليهود طلبا للغيث؛ انظر: Ben Ami Issachar, « Le culte des saints chez les juifs et les musulmans au Maroc », dans *Les relations entre juifs et musulmans en Afrique du Nord, XIX^e-XX^e siècles*, op. cit., p. 106. إن لجوء المسلمين إلى اليهود خلال فترات الجفاف لم يكن مقتصرًا على الأموات فقط، بل حتى الأحياء منهم. فأتثناء جفاف 1759م، بعث مسلمو فاس لجيرانهم اليهود يحتونهم على التوسل إلى الله من أجل الاستمطار؛ انظر: شهير، عبد العزيز، *كتاب التواريخ أو تاريخ فاس لأخبار عائلة بن دنان*، (ترجمة عن العبرية)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، تطوان، مطبعة الخليج العربي، ط 2، 2006، ص 70.

⁹ أنتينجر صموئيل، *اليهود في البلدان الإسلامية (1850 - 1950)*، ترجمة الرفاعي جمال أحمد، عالم المعرفة، العدد 197، ماي 1995، ص 330.

¹⁰ يوجد ضريح شلومو بلحنش بأوريكة نواحي مراكش وكان يزوره اليهود والمسلمون؛ انظر: Hanoune, Joseph, A *travers les quartiers juifs*, Alliance Israélite Universelle, Alger, 1925, p. 198.

¹¹ Ben Ami Issachar, *Culte des saints et pèlerinages judéo-musulmans au Maroc*, Paris, Maisonneuve et Larose 1990, p. 240-242. معلوم أن قبر الرابي "حنانيا الكوهن" المدفون بالمقبرة اليهودية بمراكش يحظى بتقديس المسلمين الذين يزورونه بكثرة، وهو المشهور بمعجزات عظيمة حتى بات يوصف بلقب "أسد مراكش". يحكى أن مدينة مراكش تعرضت لهجوم من طرف إحدى القبائل المجاورة التي كانت مدججة ببنادق لا قبل للمراكشيين لصدّ قذائفها، إلا أن الرابي "الكوهن" شوهد في ساحة الوغى يقاتل مرفوقا بأشباه تحمل هي الأخرى بنادق فضلا عن سرب من الزنبور (الدبور)، وقد أغار على المهاجمين وتم طردهم بعيدا؛ انظر: Voinot, Louis, *Pèlerinages judéo-musulmans du Maroc*, Paris, Larose, 1948, p. 52.

أن يشاهد مسلما يمرّ بضريح يهودي فيقبله.¹² وكان رحالة بريطاني يدعى "د. أرييل بنسيون" (Ariel Bension) خلال زيارته لمدينة تطوان سنة 1928، قد رصد تردد المرضى المسلمين باستمرار على قبر الولي اليهودي "إسحاق بنكليد"، حيث كان يقصده "المشلولون والمعدومون والعميان". كما لاحظ أن شموعا تضيء في المعبد الصغير الذي بناه الربى "إسحاق" قيد حياته، وأن القنديل المتواجد داخل الضريح ما زال يوقد باستمرار من طرف نساء يهوديات ومسلمات وحتى مسيحيات تقديسا لروح الولي الطاهرة.¹³

بالمقابل كان اليهود يعاملون أولياء المسلمين بمثل ما يعاملون به أولياءهم، حيث يقدسونهم ويقيمون احتفالات خاصة بهم في أضرحة هؤلاء الأولياء المسلمين وحتى الوليات منهم. وأشهر هذه الأضرحة ضريح "لالة جميلة" بطنجة الذي يزار من قبل النساء اليهوديات خاصة اللواتي كنّ يرغبن في الإنجاب، ثم ضريح "سيدي بلعباس" بسلا الذي تقصده المرضعات اليهوديات، فضلا عن العديد من اليهود رجالا ونساء قصد العلاج من الأمراض المستعصية،¹⁴ وضريح "سيدي رحال"، وكذلك "مولاي المكي بن محمد" بالرباط، وسيدي مخلوف اليهودي الذي تحول إلى الإسلام، فأصبح عند المسلمين وليا.¹⁵ لقد أبانت الأزمات التي شهدتها المجتمع المغربي عن مظاهر التساكن الإيجابي للجماعات الدينية بالمغرب، مع أنه أمر بديهي بحكم تعايشهم منذ القدم، وجعلت من مقولة "جاذبية المكان" حقيقة يمكن ملامستها من خلال التبجيل الذي كان اليهود والمسلمون يحيطون به أولياء مشتركين، أو في تواجد عناصر يهودية داخل ما يسمى بـ"الزواوية" باعتبارها مكانا مقدسا خاصا بالمسلمين. فحسب "الشريف المعسكري" نقلا عن رئيس

¹² Ben Ami, Issachar, *Culte des saints et pèlerinages...*, op.cit, p. 33.

¹³ ولد الربى "إسحاق بنكليد" بتطوان سنة 1767 وتوفي عن عمر 92 سنة، ويعتبر من أشهر الحاخامات بالمدينة. يحظى قبره المتواجد بالمقبرة القديمة بتطوان بقسدية واحترام شديدين، ويعد مزارا للمرضى من اليهود والمسلمين والنصارى على حد سواء. كما يشتهر قبر الربى "إسحاق" بكثير من الكرامات، وتنسج حوله العديد من الروايات والأساطير. يحكى أن يهوديا من فاس كان لا يقوى على الكلام، فزار قبر هذا الولي، وقضى هناك وقتا طويلا في الصلاة والصيام. وفي إحدى الليالي، استسلم اليهودي للنوم بضع ساعات بجانب القبر بسبب الإجهاد والتعب، ولما استفاق وجد صوته مسموعا، فصرخ: لقد شفيت. وجدير بالذكر أنه لا يخلو منزل يهودي من صورة لهذا الولي، كما أن هناك عدة عائلات مسلمة ومسيحية تؤمن ببركات هذا الربى وتحفظ بصورته داخل بيوتها؛ انظر: Bension, Ariel, « Juifs de Tétouan », dans *L'Avenir Illustré*, N 28, 10 août 1928, p.4.

¹⁴ "إن لم تجد المرأة المرضعة اليهودية في ثديها ما ترضعه لابنها، تتوجه إلى سيدي بلعباس وتملأ دلوها من ماء البئر الموجود بحرم الضريح، وتتركه ليلة كاملة عند قبر الولي. وفي اليوم الموالي، تشرب المرضعة في ذلك الماء، ليعود الحليب تدريجيا إلى ثديها"؛ أيضا كان اليهود رجالا ونساء وأطفالا يقصدون حوضا مائيا كبيرا كان يتواجد بحديقة "الحبوس" التابعة لأحباس الولي سيدي بلعباس، وذلك من أجل العلاج ضد المسّ والخوف ومن كل الأمراض الذهنية والعصبية. كان اليهود يعتلون حافة الحوض المائي، فيمّررون حفات من الشعير حول رؤوسهم، ووجوههم وحول أجسامهم، ثم يلقون بها نحو الحوض الذي سيظهرهم ويشفيهم من كل مكروه، ثم يرتوون من الحوض سبع رشقات. وفي الأخير، يحمل اليهود معهم بعض القارورات من هذا الماء المقدس ليشر به المريض الذي يئسوا من شفائه؛ انظر: Legey, Françoise, *Essai de folklore marocain*, Paris, Librairie orientale Paul Geuthner, 1926, pp. 155. 92 ;

¹⁵ تحدث إسحار بن عمي، حسب دراسة ميدانية استغرقت خمس سنوات تهم الأولياء اليهود بالمغرب، عن وجود 560 وليا يهوديا، من بينهم 25 امرأة صديقة. وتوصل إلى لائحة تضم 126 وليا يشترك اليهود والمسلمون في زيارتهم منهم: "سيدي ابراهيم" المعروف عند المسلمين "بسيدي قاضي حاجة"، و"يحيى بن يحيى" المعروف عند اليهود بـ"سيد ليهود"، والربى "إسحاق بن الوليد" بتطوان وغيرهم؛ انظر: Ben Ami, Issachar, *Culte des saints et pèlerinages...*, op.cit., p. 84.

الطائفة الدرقلوية "العربي الدرقلوي" قال له: "منذ سبعة أيام وأنا مريض من أجل بعض اليهود... باتوا بزاويتنا وأطعمناهم ونسيت أن نهئ لهم موضعا يرقدون فيه، وكانت الليلة شديدة البرودة".¹⁶

وعلى إثر الاعتداء الذي تعرضت له دمنات، مباشرة بعد وفاة المولى الحسن الأول، الذي طال اليهود والمسلمين الدمناتيين معا، "لجأ اليهود إلى الزاوية الإسلامية المجاورة، والتي يقال لها زاوية "سيدي بوخلف"، فوجدوا الحماية من رجال هذه الزاوية، الذين منعوا منهم طالبيهم. وهذه قضية جدية بالتسجيل".¹⁷

3- ارتياد المعوزين اليهود للفضاءات الإسلامية من أجل الصدقة

يمكن رصد فضاء آخر تلاشت فيه مختلف الحواجز المادية (أسوار، أحياء منعزلة)، أو المعنوية (دين، عرق، لغة)، خلال فترات الأزمة (مجاعة، وباء، فوضى)، حيث تحرر المعوزون والفقراء من قيود المكان رافضين كل مظاهر الانغلاق والتسوير، وجابوا فضاءات أرحب خارج فضائهم المعتاد من أجل ضمان لقمة عيش تسد رمقهم. شكلت المجاعات والفتن إذن عنصرا يقلل من قيود المكان، ويجعل جوب بعض الأماكن الدينية "المحصنة" طمعا في قوت يسكن ألم الجوع، أو بحثا عن ملاذ آمن، أمرا ممكنا ومتاحا.

فخلال موسم الجفاف 1905-1906 الذي اجتاحت مدينة مراكش، لاحظنا كيف أن "شوارع المدينة اكتظت بالمتسولين اليهود يطلبون ما يسد رمقهم ويقيهم شبح الجوع المميت، بعدما ضاق بهم الملاح، ولم تعد تكفيهم إعانات المحسنين اليهود"،¹⁸ وهي مشاهد تكررت في عدة مدن مثل طنجة سنة 1878،¹⁹ والرباط سنة 1904،²⁰ أو فاس سنة 1906.²¹ وعلى إثر أحداث عنيفة وقعت بإحدى القرى المجاورة لمراكش سنة 1903 بسبب الأزمة الاقتصادية التي مرت منها المنطقة، نزح العديد من اليهود نحو "المدينة" (تجمع إسلامي)، مما جعل مدير مدرسة الرابطة يطلب إمدادات إضافية من باريس لمساعدة هؤلاء الفقراء اليهود النازحين؛²² وهي مساعدات لا تكفي، في غالب الأوقات، لسد حاجيات هؤلاء

¹⁶ الصغير، عبد المجيد، من تاريخ التصوف المغربي: إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنين 18 و 19، الدار البيضاء، دار الآفاق الجديدة، ص 42.

¹⁷ دوتي، إدمون، مهام في المغرب من خلال القبائل، ترجمة ودراسة وتعليق عبد الرحيم حزل، الرباط، دار الأمان، 2015، ص 286-287.

¹⁸ Alliance Israélite Universelle Archives Historiques, Maroc E 0398 a, Marrakech, 8 novembre 1904 - 21 octobre 1910, Falcon Nissim.

¹⁹ البزاز، محمد الأمين، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 18، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1992، ص 249.

²⁰ Alliance Israélite Universelle Archives Historiques, Maroc E 0685 a, Rabat, 18 juillet 1902 - 16 décembre 1904, Conquy Joseph.

²¹ على إثر جفاف 1905 والمجاعة المترتبة عنه، اكتظت مدينة فاس بالمعوزين الغرباء، فخصص المسلمون الفاسيون فندقان مجاوران لباب فتوح لإيوائهم، أحدهما للرجال، والآخر للنساء. واتفق جميع الأعيان على الإنفاق عليهم. وقد بلغ عدد هؤلاء المتسولين أربعة آلاف متسول، استفادوا من الخبز، والزيت، والتين، والماء؛ لوطورنو، روجي، فاس...، مرجع سابق، ص 374-375.

²² AIU Archives Historiques, Maroc XXV.E.394-397, 1 mai 1911, Danon Raphaël.

المعوزين، فكان تواجدهم داخل الفضاءات الإسلامية أمرا عاديا، ما دامت لا توجد حدود فاصلة بين مكونات المجتمع، إلا في مخيلة أولئك الذين أرادوا بها باطلا.

ولعل مراسلة السيد "دانون رفايل" (Danon Raphaël) في 13 يناير 1914، كانت واضحة حينما أقر بعدم قدرته على إيقاف زحف المتسولين اليهود نحو شوارع مدينة مراكش، وهم يسألون المارة المسلمين "الخبز والفلس".²³ وليس غريبا أن نشاهد تواجد البؤساء اليهود داخل بيوتات المسلمين خلال الأزمات، إذ جرت العادة أن "يستقبل الأمازيغ جيرانهم المعوزين اليهود ويعاملونهم بلطف وإحسان".²⁴ وأفادت إحدى وثائق الرابطة الإسرائيلية أنه في شتاء 1904، غادرت بعض العائلات اليهودية مكونة من ثلاثة عشر فردا مسقط رأسها بتازة نحو ملاح فاس، مضطرة تحت وخز الجوع وقلة فرص العمل. دامت الرحلة ثمانين يوما، قضتها متنقلة بين القبائل المسلمة التي مرّت منها، فكانت توفر لهم المأوى والمأكّل.²⁵ وإذا علمنا أن زمن المسير بين فاس وتازة هو يومين، حسب ما أفاد به عبد الله العروي في كتابه الأصول²⁶، فإن مدة ثمانين يوما التي قضتها الأسر اليهودية تبدو مدة مبالغ فيها، لولا أن المقام طاب لهم بين القبائل المسلمة. وحسب نفس الوثيقة، فإن بعض اليهود لجأوا إلى قبائل مجاورة، فاستقروا بين ظهرانيهم وقد أسلم بعضهم.²⁷

وعليه يمكن القول: إن تخلي اليهود عن جماعتهم، خلال أزمة الأقوات، يكون بشكل مؤقت، عندما لا تشكل هذه الأزمة على حد تعبير "فرناند بروديل": "بنية من بنيات حياتهم اليومية"،²⁸ فيلجأون إلى الفضاءات الإسلامية طالبين الغوث ممن تجمعهم معهم رابطة الانتماء إلى الدولة التي تتلاشى فيها حدود الأمكنة، لكن سرعان ما يعودون إلى فضائهم اليهودي المغلق.

وتجدر بنا الإشارة إلى أنه خلال فترات الجفاف العصبية التي شهدتها السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، كان المسلمون يفدون على الملاح لشراء شرائح اللحم الكاشير (الحلال حسب شريعة النبي موسى) لسعرها المغربي الرخيص؛ فالجزارون اليهود

²³ فاق عدد المتسولين اليهود 966 فردا، ولم تكن تكفيهم الإعانات المادية التي ساهمت بها الطائفة (2000 بسيطة خلال كل شهر)، أو المصالح البلدية (1500 بسيطة)؛ انظر: Alliance Israélite Universelle Archives Historiques, Maroc B 0009 0059, Marrakech, 25 janvier 1914, Danon Raphaël.

²⁴ Flamand, Pierre, *Diaspora en terre d'Islam : Les communautés israélites du sud marocain ; essai de description et d'analyse de la vie juive en milieu berbère*, Imprimeries réunies, 1960, p. 99

²⁵ Alliance Israélite Universelle Archives Historiques, Maroc XIX E 307, Fez, 7 septembre 1902- 4 janvier 1905, Valadji Jacob.

²⁶ العروي، عبد الله، *الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية 1830-1912*، تعريب محمد حاتمي ومحمد جادور، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط 1، 2016، ص 72.

²⁷ Alliance Israélite Universelle Archives Historiques, Maroc XIX E 307, Fez, 7 septembre 1902- 4 janvier 1905, Valadji Jacob.

²⁸ يتحدث بروديل عن المجاعات حين تتكرر "بالحاح شديد"، فتصبح جزءا من النظام البيولوجي للبشر، وتصير أنواع القحط مستمرة ومألوفة لديهم. وهو الأمر الذي لا ينطبق على المغرب، إذا كان يعرف فترة جفاف تعقبها فترات ممطرة يعم فيه الرخاء ويستعيد فيها الناس توازنهم؛ برودل فرنان، *الحضارة المادية والاقتصاد الرأسمالية من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر*، ج 1، ترجمة مصطفى ماهر، القاهرة، دار الفكر، 1993، ص 80.

استغلوا تدني أسعار الماشية بسبب الجفاف، فكانوا يلجأون إلى الذبيحة السرية، مما جعل السلطات المحلية تحذرهم من ذلك في كثير من المناسبات.²⁹

4- فضاعات ممارسة الدعارة: اختلاط غير شرعي مبرر بين المسلمين واليهود

شكلت ظاهرة الدعارة سبيلا آخر لتجنب آثار الجوع والبؤس خلال فترة الأزمات الطبيعية. فعلى الرغم من القوانين المحرمة لها سواء في الإسلام واليهودية، فضلا عن العقوبات القاسية التي تنتظر مرتكبي الدعارة في بلد إسلامي كالمغرب، فإن أي محاولة لمنع البغاء وتجفيف منابعه تبقى أمرا صعبا، خصوصا عندما يتعلق الأمر بمورد عيش، أو بحالة اضطرار.

فالمجاعات والأوبئة شكلت، منذ زمن بعيد، أحد الأسباب القاهرة التي تدفع بالنساء إلى عرض أجسادهن على الغرباء؛ وتفيدنا رسالة من عامل قبيلة انتيفة عبد الله الزناكي، إلى المولى الحسن بأن يهوديا يدعى يعقوب الدهان أوى امرأة مسلمة في بيته، فزنى بها وحملت منه.³⁰ واتخذت هذه القضية أبعادا دولية، خصوصا بعدما ذاع خبر ضرب العامل المذكور لليهودي حتى أزهقت روحه، على صفحات الجرائد الدولية. ومن بين الدفوعات التي عرضتها الجمعيات اليهودية³¹ للمطالبة بتعويضات لذوي الهالك وعزل العامل من منصبه، كون يعقوب الدهان لم يرفض طلب مساعدته للمرأة المسلمة، التي لجأت إليه في ظروف الجفاف والمجاعة التي شهدتها البلاد خلال هذه الفترة، "فأواها بمنزله وأطعمها وأحسن إليها، وكان جزاؤه الضرب المبرح والقتل وترك جثته عرضة للتعفن". إلا أن مساعي السفير البريطاني جون دراموند هاي (John Drummond Hay) حاولت تليين مواقف الأطراف المطالبة بالحقوق المدني، فقبلت بأداء فدية لابن الهالك قدرها 3700 ريالا وانتقال العامل المذكور إلى دمنات للإقامة بها.³²

وسواء كان هذا الطرف أو ذاك على صواب، فما يهمنا نحن هو طبيعة السلوك البشري المنقاد، بدافع الجوع القاتل، نحو أعمال شاذة تدخل في باب المحظور والمحرّم. فأكيد أن هذه المرأة المسلمة استنفذت كل الحلول المتاحة واستنجدت بأوهى خيوط الإكراه، فلم تجد بدا من خلوة غير شرعية تحت سقف بيت يهودي.

تطلعنا كذلك وثائق الرابطة الإسرائيلية بباريس على حدث مماثل إبان مطلع القرن العشرين؛ ففي ظل الأزمة الاقتصادية التي طالت المغرب صيف 1905، اضطرت الفتيات اليهوديات الشابات، تحت وطأة الجوع والحاجة، إلى امتهان الدعارة، سواء داخل الملاح أو

²⁹ مديرية الوثائق الملكية، مراكش 4، بتاريخ 17 محرم 1297 / 31 دجنبر 1879، عبد الله إبراهيم.

³⁰ رسالة من قائد انتيفة إلى مولاي الحسن، 16 رمضان 1297 الموافق لـ 22 غشت 1880، مديرية الوثائق الملكية، الرباط.

³¹ كثرت النزاعات والقتال بين المسلمين واليهود في مختلف أنحاء المغرب في ظرفية عامة موسومة بالتسرب الأوربي وانتشار الحميات في صفوف اليهود، فأصبحت هذه النزاعات تثير تدخل الجمعيات اليهودية والمفوضيات الأجنبية، كما هو الشأن بالنسبة لهذا الحادث. ومعلوم أن يهود انتيفة كانوا يشكلون رقما مهما داخل البنية السكانية للقبيلة خلال تلك الفترة؛ ف"الساكنة قرابة 1500 نسمة ضمنها 200 يهودي"، دو فوكو شارل، *التعرف على المغرب، 1883-1884*، ترجمة المختار بلعربي، الدار البيضاء، دار الثقافة، ط 1، 1999، ص 104.

³² كنييب، محمد، *المحميون*، الرباط، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط 1، 2011، ص 274-276.

خارجه بالمدينة، في ظل تراخي شرطة الأخلاق التي يمثلها شيخ اليهود "مايير"، الذي لم يكلف نفسه عناء التفكير في حلول جديّة لمعالجة هذه المشكلة³³.

صحيح أن الدعارة فعل محرّم بمقتضى النصوص الدينية الإسلامية واليهودية،³⁴ ولا تتفق مع أخلاق المغاربة وطبيعة نظامهم الخلقي الديني، إلا أنه يحيلنا على نوع آخر من التعايش "إن صح القول" ضمن فضاء هامشي شكل دوما مجالا للالتقاء بين المسلمين واليهود. فالتقرير يشير صراحة إلى اضطراب اليهوديات لممارسة البغاء بالمدينة أو ما يعرف بالحي الإسلامي، كما تفيد كتابات الرحالة الأوروبيين بوجود مومسات وراقصات يهوديات في أوساط مسلمة بمدن مراكش³⁵، وطنجة³⁶، ودمنات³⁷.

وفي معرض حديثه عن بعض المهن التي يمارسها اليهود بشكل عرضي بالجنوب المغربي، لاحظ فلانمان بيبير (Flamand Pierre)، نقلا عن رافاييل دانون (Raphaël Danon) مدير مدرسة الرابطة بمراكش، أنه في سنة 1900 كانت حوالي ألف فتاة يهودية تمارس الدعارة بملاح مدينته، في حين تقلص هذا العدد إلى عشرين فتاة مومسة سنة 1950. ويمكن تفسير هذا العدد الكبير للمومسات اليهوديات داخل ملاح مراكش، بالظرفية الاقتصادية المتأزمة التي شهدتها مختلف مناطق المغرب إبان مطلع القرن العشرين والتي تميزت بانعدام فرص الشغل وغلاء الأسعار. لقد كتب "فلانمان بيبير" عن واقع ارتياد الزبناء المسلمين للملاح بحثا عن متعة عابرة في أحضان هؤلاء اليهوديات بعيدا عن أي رقابة أو متابعة قانونية،³⁸ وأيضا عن اختيار بعض الباغيات المسلمات الاستقرار بالملاح بسبب ارتفاع ثمن كراء الدور بالمدينة، بالمقابل استقرت يهوديات بأحياء مسلمة لعرض خدماتهن على زبائنهن (حي البحيرة بمراكش المحاذي للمقبرة كمثال).³⁹

وفي وثيقة مخزنية عبارة عن رسالة جوابية من عامل إقليم العرائش إلى السيد "محمد بركاش" مؤرخة في 12 ربيع الثاني 1280هـ/ 26-09-1863، بخصوص قضية اليهودية "جوهرة سلفنية" نجد أن "اليهودية كانت صنعتها وحرفتها تباع الماء الفاسد ليلا ونهارا ودارها مأوى للسفلة من مسلمين ويهود ومن كان منهم من تدعوه الضرورة بغلبة السكر عليه للمبيت عندها وذلك في غالب الليالي، وهذا هو الواقع في نازلة اليهودية من غير زيادة

³³ Alliance Israélite Universelle Archives Historiques, Maroc XXVI E 398 a, 30 Aout 1905, Falcon Nissim.

³⁴ عقوبة الزنا في الإسلام مائة جلدة لغير المحصن مصداقا لقوله تعالى في سورة النور الآية 2: "الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة"، أما الزاني المحصن فعقوبته الرجم حتى الموت، وهم حكم بالإجماع. وفي الشريعة اليهودية، يعاقب الزاني بالقتل سواء كان رجلا أو امرأة. ففي سفر اللاويين آية 10: "وإذا زنى رجل مع امرأة، فإذا زنى مع امرأة قريبه، فإنه يقتل الزاني والزانية".

³⁵ Brives, Abel, *Voyage au Maroc (1901-1907)*, Alger, Edition Typographie Adolphe Jourdan, 1909, p. 314-315.

³⁶ H. de T. d'Arlach, *Le Maroc en 1856*, Paris, Librairie Ledoyen, 1856, p. 43-45.

³⁷ لاحظ فلانمان بيبير أن أربع يهوديات مومسات يُقمن بصفة غير قانونية بدمنات، وكُنّ دوما مهددات بالطرد من طرف مجلس القبيلة؛ انظر: Flamand Pierre, *Un Mellah en pays berbère : Demnate*, Paris, Librairie générale de droit et jurisprudence, 1952, p. 131.

³⁸ Flamand Pierre, *Diaspora en terre d'Islam...*, op.cit., p. 184.

³⁹ Ibid., p. 185.

ولا نقصان".⁴⁰ وهذا دليل آخر على تمرد المسلمين على كل القيود القانونية والدينية والاجتماعية التي توطر مجال تحركهم اليومي، وذلك من خلال ارتيادهم لأمكنة محرمة عليهم، لا اعتبارين اثنين: تحريم الزنا من طرف الشرع والقانون، ثم التواجد بالملاح ليلا مع العلم أن الأعراف لا تسمح بوجود المسلمين داخله بعد التاسعة ليلا.⁴¹

خاتمة

وعلى سبيل الختم، يمكن القول إنه على الرغم من تعبيرات سوء التفاهم والمقاومات، ومختلف مظاهر الاستخدام السياسي التي وظفها مؤرخون ورحالة أجانب، مستجيبين لأجهزة ضغط قوية، للتعبير عن واقع عزل الأقلية اليهودية، داخل ملاحظاتهم، عن الأغلبية المسلمة درءا لكل اضطهاد أو تعسف، فقد وُجدت وما تزال أشكالا متنوعة للاختلاط والتفاعل واللقاء والتعايش، التي لا تكف عن تفجير الخطابات المغلقة والتناقضات الوهمية. فإذا كان الاختلاط بين اليهود والمسلمين في فضاءات عامة وأخرى جد خاصة، كرد فعل تلقائي خلال الأزمات بدافع الحاجة والضرورة، فإن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن في مثل هذه الحالات هو: إلى أي حد يمكن القول بأنه في سياق هذا "الاختلاط" بين الطرفين وما كان يترتب عنه من أجواء حميمية وروحية واجتماعية، بصحة مقولة تسوير الملاحظات وعزل اليهود عن المسلمين؟

المراجع

- ✓ سورة النور، الآية 2.
- ✓ سفر اللاويين، آية 10.

الوثائق

- ✓ مديرية الوثائق الملكية، محفظة المولى الحسن، الرباط. (وثيقة بتاريخ 16 رمضان 1297 / 22 غشت 1880).
- ✓ مديرية الوثائق الملكية، محفظة مراكش 4، (وثيقة بتاريخ 17 محرم 1297 / 31 دجنبر 1879).
- ✓ أرشيف المغرب، رصيد كوركوس، رسالتي الطيب بن اليمني، في 6 جمادى الثانية 1282هـ / 27 أكتوبر 1865م، وفي 11 جمادى الأولى 1282 / 2 أكتوبر 1865م.
- Alliance Israélite Universelle Archives Historiques, Maroc E 0398 a, Marrakech, 8 novembre 1904 - 21 octobre 1910, Falcon Nissim.

⁴⁰ أخريف، محمد والعسري، محمد العربي، *يهود القصر الكبير: صفحات من تاريخ منسي مقاربات متقاطعة*، الرباط، مطبعة الأمنية، ط 1، 2018، ص 421-422.

⁴¹ هناك مثل مغربي شهير يعكس واقع ارتياد المسلمين لدور الدعارة اليهودية: "اقحب مع اليهود، وخلي الجيران شهود"، كحل العيون، أنسة، *أمثال شعبية من المغرب*، مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية، 2007، ص 25.

Alliance Israélite Universelle Archives Historiques, Maroc E 0685 a, Rabat, 18 juillet 1902 - 16 décembre 1904, Conquy Joseph.
 Alliance Israélite Universelle Archives Historiques, Maroc XIX E 307, Fez, 7 septembre 1902- 4 janvier 1905, Valadji Jacob.
 Alliance Israélite Universelle Archives Historiques, Maroc XXV.E.394-397, 1 mai 1911, Danon Raphaël.

الكتب

- ✓ أتينجر، صموئيل، *اليهود في البلدان الإسلامية (1850 - 1950)*، ترجمة الرفاعي جمال أحمد، عالم المعرفة، العدد 197، ماي 1995.
- ✓ أخريف، محمد والعسري، محمد العربي، *يهود القصر الكبير: صفحات من تاريخ منسي مقاربات متقاطعة*، الرباط، مطبعة الأمنية، ط 1، 2018.
- ✓ برودل، فرنان، *الحضارة المادية والاقتصاد الرأسمالية من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر*، ترجمة مصطفى ماهر، ج 1، القاهرة، دار الفكر، 1993.
- ✓ البزاز، محمد الأمين، *تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1992.
- ✓ التوفيق، أحمد، *المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إينولتان 1850-1912)*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ج 1، ط 2011، 3.
- ✓ دو فوكو، شارل، *التعرف على المغرب 1883-1884*، ترجمة المختار بلعربي، الدار البيضاء، دار الثقافة، ط 1، 1999.
- ✓ دوتي، إدمون، *مهام في المغرب من خلال القبائل*، ترجمة ودراسة وتعليق عبد الرحيم حزل، الرباط، دار الأمان، 2015.
- ✓ شهير عبد العزيز، *كتاب التواريخ أو تاريخ فاس لأخبار عائلة بن دنان*، (ترجمة عن العبرية)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، تطوان، مطبعة الخليج العربي، ط 2، 2006.
- ✓ الصغير، عبد المجيد، *من تاريخ التصوف المغربي: إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنين 18 و 19*، الدار البيضاء، دار الآفاق الجديدة، (د.ت.).
- ✓ العروي، عبد الله، *الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية 1830-1912*، تعريب محمد حاتمي ومحمد جادور، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط 1، 2016.
- ✓ كحل العيون، أنسة، *أمثال شعبية من المغرب*، مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية، 2007.
- ✓ كنيب، محمد، *المحميون*، الرباط، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، ط 1، 2011.
- ✓ لوطورنو، روجي، *فاس قبل الحماية*، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج 1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1995.

المقالات

- ✓ البزاز، محمد الأمين، "الحج المغربي إلى الديار المقدسة في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين"، *مجلة دار النيابة*، العددان 16/15، السنة 4، صيف/ خريف 1987، ص 66.

المجلات

- ✓ مجلة الوثائق، عدد 4، الوثيقتين 556 و 557، الرباط، المطبعة الملكية، 1977.

Livres

- Ben Ami, Issachar, *Culte des saints et pèlerinages judéo-musulmans au Maroc*, Paris, Maisonneuve et Larose, 1990.
- Flamand, Pierre, *Diaspora en terre d'Islam : Les communautés israélites du sud marocain ; essai de description et d'analyse de la vie juive en milieu berbère*, Imprimeries réunies, 1960.
- Flamand, Pierre, *Un Mellah en pays berbère : Demnate*, Paris, Librairie générale de droit et jurisprudence, 1952.
- Hanoune, Joseph, *A travers les quartiers juifs*, Archives de l'Alliance Israélite Universelle, Alger, 1925.
- Hermann, Cohn, *Mœurs des Juifs et des Arabes de Tétuan*, Paris, Librairie Lipschutz, Edition 2, 1927.
- Legey, Françoise, *Essai de folklore marocain*, Paris, Librairie orientaliste Paul Geuthner, 1926.
- Voinot, Louis, *Pèlerinages judéo-musulmans du Maroc*, Paris, Larose, 1948.
- Brives, Abel, *Voyage au Maroc (1901-1907)*, Alger, Typographie Adolphe Jourdan, 1909.
- H. de T. d'Arlach, *Le Maroc en 1856*, Paris, Librairie Ledoyen, 1856.

Ouvrage collectif

Ben Ami Issachar, « Le culte des saints chez les juifs et les musulmans au Maroc », dans *Les relations entre juifs et musulmans en Afrique du Nord, XIXe-XXe siècle*, actes du colloque international de l'institut d'histoire des pays d'outre-mer (octobre 1978), sous la direction de J. L. Miège, Paris, centre national de la recherche scientifique, 1980, p. 104-109.

Abitbol, Michel, « Un aspect des relations judéo-musulmanes au Maghreb à la fin du XIXème siècle : Les négociants du roi et la bourgeoisie marocaine à la veille du Protectorat », dans *Les relations entre juifs et musulmans en Afrique du nord XIXe- XXe siècles*, actes du colloque international de l'institut d'histoire des pays d'outre-mer, octobre 1978, sous la direction de J. L. Miège, Paris, Edition du centre national de la recherche scientifique, 1980, p. 113.

Journaux

Beaumier, Auguste, « Le choléra au Maroc, sa marche du Sahara jusqu'au Sénégal en 1868 », dans *Bulletin de société de Géographie*, Janvier, 1872, Série 6, t 3, Paris, p. 289.

Bension, Ariel, « Juifs de Tétouan », dans *L'Avenir Illustré*, N 28, 10 août 1928, p.4.